بسم الله الرّحمن الرّحيم

قال تعالى :

" إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا "

صدق الله العظيم

سورة (البقرة ٢/٢٦)

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء.....

إلى مَن كنتُ بهمْ

وبهم تسمُو الحيَاة

ومِن أجلهم أعيش.....

حسين جمعة...

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

يخطئ من يظن أن الشعر القديم قد تناهى إلى زوايا الإهمال أو النسيان، أو انزوى بعيداً في متحف التاريخ ليزوره كل من يحتاج إليه، أي إن هناك من يعتقد أنه أضحى خارج السياق الأدبي لحركة الحياة والتقدم... ويرى عدد غير قليل أن مشاهد الحيوان تقع في طليعة المهمل من الشعر القديم، ولاسيما أن الحيوان أخذ يختفي من حياة الناس وحركة الأحداث المؤثرة، فوجوده لم يعد يوافق متطلبات العصر في القرن الماضي والحاضر، فقد أضحى مكانه حدائق الحيوان وغدا مادة للإمتاع في زيارات متقطعة. أما في الفن والأدب فلم يظهر فيهما إلا في معرض حكايات للأطفال وعظاً وإرشاداً، أو في معرض ضرب الأمثال للاعتبار والموعظة...

وبناء على ما تقدم فإننا نقف موقفاً يعيد إلى الأذهان أهمية دراسات الأدب القديم وما يكتنزه من أسرار عظيمة... وهذا ما دفعنا إلى إعادة نشر كتابنا (مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية) بعد أن نفدت طبعته الأولى منذ أمد زاعمين أنه سيؤكد لكل مُنْصف ومحايد أن الشعر القديم - وبخاصة القصائد التي اشتملت على مشاهد الحيوان قصرت أم طالت، وقُصدت لذاتها أم جاءت في سياق وحدة بنية القصيدة - مازال يحتفظ بفوائد جمة، وقيم كبرى على صعيد اللغة والفن والأفكار؛ وفق ما أكدته وظيفتها وطبيعتها، وما اختزنته من رؤى مثيرة. فهي تجربة فنية راقية تمتلئ بفيض إبداعي يجتاز حدود المألوف في تصوير الواقع والمشاعر والتجربة الإنسانية، لتنتقل بالقارئ إلى سوية عالية من التلقي فهماً وتحليلاً وتأويلاً...

ومن ثم ما برحت ترسي فينا تلك العلاقة القوية بين مفهومي الأصالة والمعاصرة؛ وتمدنا بلغة أخّاذة، وعبارات جزلة ومشرقة، وديباجة بهية، وأخيلة ساحرة تخترق الحداثة بكل أبعادها؛ وهي تقدم فناً مدهشاً وبهياً... إن مشاهد الحيوان تحقق للمتلقي في كل زمان ومكان جوهر التعرف إلى تراث أدبي يفيض بالتعبير عن مجتمع تميز بثقافته ومعتقداته وفنه، سواء تناولت الخيل أم الإبل، أم حيوان الوحش، أم الحيوان الأهلي...

obeikandl.com

وهكذا هفت نفس الباحث إلى تذكير القارئ بما قدمه، ولاسيما حين رأى أن كتاب (مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية) وقبله (الحيوان في الشعر الجاهلي) قد جعله عدد من الدارسين كلأ مستباحاً يعودون إليه، وينسون فضل صاحبه، فقرر استحضار صوت الغياب، وكسر شوكة الصمت المطبق اتجاه ارتكاس ضمائر عدد منهم وجرأتها على استلاب ما ليس لها، زاعمة أنها صاحبة السبق والريادة...

ولذلك كله فإني أضع بين يديك أخي القارئ الصورة الحقيقية لكتابنا وفق ما كانت عليه، راجياً أن ترتاح نفسك لمتعة البحث، والإفادة منه...

ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

دمشق/ مساء الخميس ٢٩/ ٤/ ٢٠١٠

د. حسين جمعة

obeikandl.com

مقدمة

مازال الشعر الجاهلي يختزن جملة من الدلائل الفكرية والنفسية والفنية، ومازالت الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية والفنية... تسعى إلى الكشف عن ذلك.

ومن هنا كان موضوع البحث الأول "الحيوان في الشعر الجاهلي" الذي لم يخل من جدة في بحثه ونتائجه، فالحيوان مؤنس للجاهلي ورفيق له ينال به المنى إن لم يحظ بحاجته، فهو عدته ومادة حياته، وواحد من ينابيع فكره ومعتقداته، وعاداته وفنه ولغته.

وقد أغنى الشاعر الجاهلي صوره بسيل مفعم من مشاهده ساكناً ومتحركاً فوق الطبيعة الجامدة، ماجعلني أتناوله في دراسة أنثروبولوجية تعرض لذلك كله.

وهذا يجعلني أقف مرة أخرى ـ وكنت أمّلت نفسي بها ـ عند صورة الحيوان، وهي وقفة مغايرة لسابقتها غير أنها مكملة لها لا متناقضة معها من خلال البحث الثاني "مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية"، وهذا يجدد بي العزم على استكمال الدراسة بـ "الصورة الفنية للحيوان" وبيان وظيفتها من خلال بنيتها ووقوعها في نهج القصيدة الجاهلية والإسلامية.

فالحيوان عزّز لدى الشعراء تزيين النوازع الفكرية والنفسية فصار مُؤَهّلاً لإيصال ما يرجى منه وسط مواقف إنسانية تتصل بعقل الشاعر وتجربته وثقافته. وقد غدا مشهد الحيوان أشبه بالتقليد الثابت في قصائد الجاهليين ندر أن تخلو واحدة منه سواء قصر أم طال. وفي أي نهج وقع كان يقدم لأغراض الشعر المعروفة كالمدح والرثاء والفخر والهجاء والغز ل والوصف – إن لم يكن هو صلب الوصف ذاته – غير ما فائدة، وأوضح علاقته بها مثلما بيَّن صلته بقيم الجاهليين التي آمنوا بها وعرضوا لها في أشعارهم وجسّدتها فنونهم. فالجاهلي جعل الحيوان مصدراً قوياً يمثل البيئة ويتكئ عليه في إظهار ما وقر في نفسه وذاكرته ثم جعله مادة فنية تثير وجد المتلقي؛ وتحرك نوازعه وتحكي روح الحياة بكل حيويتها حين يغيب النور

obeikandl.com

ويسود الصمت، ويتلاشى الصوت، أو حين تنبلج أطياف الصباح ، وتضجّ الطبيعة بالحيوية والحركة، وقد أطلقت أعنتها لمعانقة أشعة الشمس الذهبية.

ولهذا كله قسمت هذا البحث إلى أربعة فصول تبعاً لأنواع الحيوان، وأوضحت ما للمشهد وما عليه فنياً وفكرياً كما وقع في القصيدة الجاهلية ولو كان في بيت مفرد أو دون ذلك.

أما الفصل الأول فعنوانه "مشهد الناقة في القصيدة الجاهلية". وأرسى عدداً من الثوابت الفكرية والفنية التي تأصلت فيها. وعبَّر عن قدرة الشعراء على ترتيب بنية المشهد، والتوفيق بين صوره المتضادة لتخلق وحدة دلالية ترتبط بالواقع الإجتماعي والبيئي. ولهذا وقف عند قسمين: تناول الأول الجانب الإنساني وتوقف الثاني عند "مشهد الناقة وحيوان الوحش". وعُني هذا الفصل بالصور المشاكلة للطبيعة الحية ممثلة بالحمر الوحشية والبقر الوحشي وبعض الطير، فجاء صورة من مفهوم القوم حول تنازع وتصدع الشمل. أما حين يرتحل الشعراء فإن رواحلهم تصغي إلى حديث المتحاورين وكأنها تفهم ما يجري حولها. هذا إذا أُهمل الحديث عن الإبل التي تعد أنفس المال عند الجاهلي ولكنه ما بخل به على المحتاجين، وهو أحرصُ على بذله في السنوات العجاف. والتمس مشهد الناقة في صورة الحرب جزءاً من ملامح حياة الجاهليين فعُرفت الإبل المجنبة والمشاركة في القتال. وقد استطاع هذا الفصل أن يجعل المشهد طريقاً إلى المعرفة بوساطة اللغة والصورة.

وقام الفصل الثاني على "مشهد الخيل في القصيدة الجاهلية". وضم اتجاهين، الأول تناول المشهد الإنساني في صميم الأنساق اللغوية والمشاهد الحية التي اتصلت بغيرها لتجعل القصيدة مترابطة الأجزاء داخلياً في الوقت الذي تعبر عن وجود زمني حيوي. لذا أحاط بأهمية الخيل وإعزاز الجاهليين لها في السلم والحرب، والثاني تناول "مشهد الخيل والصيد" ورأى أن الخيل مادة للكسب والرزق وصورة للمتعة، ومثال للجمال. واقتطف هذا الاتجاه من الطبيعة ملامح كثيرة مستندة في ذلك إلى البقر الوحشي والثيران التي طغت على مشاهد الطير والحمر الوحشية.

وقدَّم الفصل الثالث "المشاهد العامة للطير والشاء"، وتخصص القسم الأول منه بالطير، وفيه مشهد ما يألف من الطير كالدجاج والحمام والعصافير والنَّعام، ومشهد عتاق الطير وسباعها كالصقر والعقاب والنسر، ومشهد لئام الطير كالرَّخَم والغراب والبوم، ومشهد ضعاف الطير كالحُبارى والقطا، وما سواه من "مشاهد طيور أخرى" كالحجل وطير الماء والحِدأ والرَّهْر والمُكَّاء. واختص الثاني بـ "مشهد الشاء"، وفيه مشهد الضأن والمعز، ومشهد الظباء والمها، ومشهد الوعول، ومشهد حيوانات أخرى كالفيل. وأوصل إلينا تشكيل الحياة في الأطلال وتشاكل الصفات مع النساء وصور التشبث بالحياة والامتناع على الدهر.

أما الفصل الرابع والأخير فعنوانه "المشاهد العامة لذوات الناب والزواحف والحشرات". وقادنا إلى قسمين: تحدث الأول عن "ذوات الناب والأظفار" وهي الكلاب والأسود والذئاب والضّباع والثعالب، وأشار إلى بعضها الآخر كالأرانب والخنازير والظرابي والقردة والهرة والنّمُور واليرابيع. وبحث القسم الثاني "مشهدُ الزواحف والحشرات" في عدد منها كالأفاعي والعقارب والحرابي والضِّباب والوَرَل والوَزَغ، وتهيأ له من مشهد الحشرات جملة من الأمور، مثل مشهد الجراد والذباب والنَّحْل والنَّمل. وانتهى إلى مشاهد أخرى من الحشرات والزواحف كالسمك والقنافذ والأساريع والضَّفادع والبعوض والعناكب.

وبهذا كله تأصل "مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية" وكان قادراً على الإيحاء والتأثير مهما بلغ حجمه، ولم يخرج عن الفكرة التي بنيت عليها القصيدة، وإنما جاء مقوياً لها ومتفاعلاً بالشكل الفني الذي اتخذته دون أن يكون هناك انفصام في وحدتها النفسية والفكرية.

ولعل ما تقدم يوضح لنا أن البحث ضم في طياته جملة من النتائج، كما أنه تفرد بعدد آخر منها ثم استقر عند ثَبَت بالفهارس.

وقد يكون موضوع "مشهد الحيوان" ذا وقع خاص على الأسماع هذه الأيام، ولهذا فإنه يحمل في ذاته غرابة وغربة من نوع خاص مثلما يوقع الباحث في مشكلات كثيرة لوعورة مسالكه وتشعب مساربه واختلافها بين الشعراء.

ومن هنا اتخذ العمل فيه طابع الجدة والحرص والحذر، ومما يعزي النفس بعد لأي من الزمن والجهد أن الغربة زالت بيني وبينه، وذُلِّلت ركابه من خلال المنهج الذي عَوَّلت عليه في كتابي الأول وانتهى إلى قراءة التراث بالتراث واعتماد النصوص الموثقة واستبيان المنحول منها والمتنازع على روايتها. وكنت أدني ذلك من أخبار الجاهليين، وأربطه بالملابسات التاريخية والمناسبة التي يُعتقد أن الشاعر كان قد نظم فيها شعره جاعلاً نصب عيني الانتقال من العام إلى الخاص، على الرغم من أن المنهج النفسي التحليلي قد تعزز في هذا البحث؛ أكثر من غيره لما له من مدلولات كثيرة.

أما مصادري فهي دواوين الشعراء فالمجموعات الشعرية، وإذا اقتضى المنهج إثبات المظان الأخرى فما آليت جهداً بذلك. وذيَّلْت شرح كثير من المفردات الصعبة من تلك المصادر إذا اتفقت وما ورد في المعجمات وإلا عُجت على هذه.

هكذا حاولت الاجتهاد في الوصول إلى ما رآه الجاهلي نفسُه لا إلى ما يراه بعضنا اليوم مفصُولاً عنه، لأننا بهذا نشوّه صورة من صور تراثنا العربي العملاق. فخدمة التراث إنما تكمن في استخراج أفكار أهله لنتخذها سبيلاً إلى تعزيز حاضرنا وإدراك مستقبلنا لا أن نحمّله قسراً آراء عصرنا من خلال ادعاء تطويره. وهذا لا يمنع إغناء ذلك التراث بأنواع الفكر الإنساني ما دام المشهد ينقاد لقبول التأويل وتعدد القراءات المتماوجة في سياق العبارة، ثم النص. فالنص الإبداعي لمشهد الحيوان ــ وفي صميم علاقته بالطبيعة ــ كان مكتنزاً بأسرار دلالية فياضة، وبأبعاد جمالية آسرة ، ما حقق البنية الفنية والفكرية المتميزة للقصيدة الجاهلية، إذ اكتسبت خصائص فريدة شكلاً ومضموناً في حالة النمطية أوالنظام ثم في حالة التحول من نظام إلى آخر، ولعل هذا كله عزز الميل ـ لدينا ـ إلى تبني نظرية السياق، ثم نظرية الحقول الدلالية....

وقد قوّى عزيمتي على ذلك أستاذي الدكتور عبد الحفيظ السطلي الذي طوّق عنقي بفضل لا أفيه العمر كله، فمنه زاد المسافر والمعونة، وبه العزم والقوة على مثل هذه الأبحاث الغابرة في البيداء، والمرء يصلحه الجليس الصالح.

وما كنت لأجد حق أستاذي العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ الذي كان له فضل مناقشة كثير من قضايا البحث، بل إنه كان يزقني زقاً في أحايين أُخر، فحباني بهذا عطفاً ووسعني علماً، وما ضن علي بما ينفعني، فما أعجز اللسان عن الوفاء بجميله!.

وأتقدم بالشكر إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية وفي مقدمتهم الدكتور مازن المبارك لما لهم من خير عميم في إبداء النصح والإرشاد إلى الكلمة الجادة الصحيحة.

وإن بحثاً يحمل ثقة القارئ الكريم لهو محظوظ حقاً، ولا شك في أنه سيصلح برأيه، وأن ليس للإنسان إلى ما سعى.

والله من وراء القصد، ومنه التوفيق.

د.حسين جمعة

obeikandl.com